التـــراث
بين الحضور والغياب
خواطر معراجية

سليمان العطار *

التراث القومى ركام هائل. وهو جزء من ركام أكبر بكثير هو التراث الإنسانى، وهذا الركام يلوّن الثقافة المعاصرة بلونيه الأسود والأبيض، وبين اللونين تنبثق ألوان أخرى تشاركهما الوجود فى تشكيل الحاضر والمستقبل. البياض حضور لعناصر التراث الإيجابية أو غياب لعناصره السلبية، والسواد حضور لعناصر التراث السلبية أو غياب لعناصره الإيجابية. والأمر يحتاج لإيضاح لا يغرقنا فيما أسميه «الضياع العظيم» لهذه الأمة، لفشلها فى التحكم فى هذا الركام على المستويين القومى والإنسانى، مما أطلقه دون ضابط يسيطر على مجرى ثقافتنا اليوم، فصارت ثقافة مهزومة من داخلها لعقم جدلها مع الإنسان فى مقابل حيوية جدلها مع التراث دون تدخل فاعل من هذا الإنسان. وإذا صح التشبيه؛ فقد أصبحت الثقافة المعاصرة بحرا هائلا من الزواحف التى يسودها «ديناصور التراث»؛ ذلك الديناصور الذى يتغذى على عقل الإنسان صاحب تلك الثقافة.

* أستاذ الأدب الأندلسى، قسم اللغة العربية بآداب القاهرة .

والأبيض والأسود مفهومان ـ كما طرحناهما بين حضور عناصر من التراث وغياب أخرى ـ يؤديان إلى طرح شيء من الإيجابية ترتبط بمفهوم «الأبيض» بين تشكيل تميز الشخصية القومية وتهيئة انحلال هذا اللون الأبيض لألوان لا حصر لها من الجديد الحاضر والقابل، كما يؤديان إلى طرح شيء من السلبية ترتبط بمفهوم الأسود بين جمود تلك الشخصية القومية وانغلاقها في مواجهة الآخر ورفضها للتغيير والجديد. والمواجهة الحقيقية لهذه الصورة هي جدل الإنسان مع التراث في خصوبة يسيطر بها على اللونين الأسود والأبيض داخل ثقافته لصالحه ولصالح مستقبله؛ وهذه السيطرة أشبه بسيطرة الإنسان على الجاذبية الأرضية، بالانفلات منها بسرعة ذات عجلة معراجية أكبر من عجلة جذب الأرض.

*

هذه الفكرة المبدئية هي المدخل لمجموعة من الخواطر حول موضوع «المعراج»، وهي خواطر أقرب إلى العلمية، تمهد لدراسة جادة شرعت في الإعداد لها منذ زمن بعيد؛ لأن الموضوع بالغ التشابك والتعقيد والأهمية، مادته غزيرة ومجال دورانه متسع.

موضوع المعراج يعالج سنويا في عالمنا الإسلامي باحتفال يقوم على الخطب والمواعظ تحت مسمى «ليلة الإسراء». وذلك الاحتفال معالجة دينية حماسية تخلو من الفهم العميق لخطورة الموضوع في التراث القومي؛ الأمر الذي يجعلنا نؤكد غياب الموضوع في ثقافتنا الحديثة غيابا تاما، فلا يخلو هذا الاحتفال من التجاهل للمفهوم المحدد للحياة الذي يتضمنه المعراج؛ إذ يكتفي بالحديث عن الواقعة في محورين: المحور الأول الذي درج عليه الوعاظ، هو محاولة إثبات صحة الإسراء والمعراج والبرهنة عبر الحواديت والحكايات عن واقعيته. ولا يفتأ الوعاظ كل يوم يحاولون إثبات صحة الرسالة ونسبة القرآن إلى الله وغيره من الوقائع الدينية، متناسين أنهم يحدثون المؤمنين الذين لا يتسرب إليهم الشك سواء في كلية الدين أو في تفاصيله. فخطابهم لا جدوى من ورائه عندما يدور حول هذا المحور. أما المحور الثاني، فهو التأكيد على أن المعراج معجزة للرسول تثبت صحة رسالته وأفضليته على الأنبياء، فيصب هذا المحور الثاني في المحور الأول، ويدخل في «تحصيل الحاصل»، ليمعن المعراج في الغياب داخل الثقافة.

والغياب الثاني للمعراج في ثقافتنا نابع عن غيبة استلهامه في الإبداع الأدبي بل العلمي. فلا نجد عملا واحدا يعالج الموضوع معالجة فنية، فضلا عن غيابه في خيال علمائنا في عصر المعراج إلى الفضاء دون السماء.

فكلمة «الفضاء» اليوم من الناحية الدلالية أصبحت ذات أهمية قصوى في دراسة دور المعراج في التقدم العلمي نحو الملاحة في الفضاء. فالكلمة تحل تدريجيا محل كلمة «السماء». إن الدراسة الدلالية تثبت أن معظم استعمالات «السماء» قد آلت إلى «الفضاء»؛ ولم يبق للسماء استعمال إلا في الشعر والدين وعند بعض العامة عندما يتحدثون عن الجو فيقولون: «السماء صافية/ السماء مغيمة.. إلخ». إن كشوف الفضاء الحديثة تحقيق على المستوى العام لحلم إنساني لم يتحقق في الماضي إلا على مستوى فردي للرسول الأمين، ثم لعدد من المتصوفة بشكل روحي يخالف المعراج الجسمي عند نبي الإسلام العظيم. ومن ثمّ، يصبح الآن مفهوم السماء، كما ورد في الإسراء والمعراج، أكثر وضوحا لنا عن العصور القديمة. فهم قد امتزج عندهم مفهوم الفضاء كما نعرفه اليوم بمفهوم السماء الذي حدده وميزه بروز مصطلح الفضاء في الحضارة المعاصرة. لقد انزاح الفضاء عن مفهوم السماء لتصير محدودة بعالم الملكوت أو بكلمات أوضح «عالم الغيب». فالسماء هي موضع العرش ومسكن الملائكة والأرواح وعالم البرزخ وطريق عروج النبي وحده، وليس المتصوفة، كما سوف نرى.

أما الغياب الثالث للمعراج فى ثقافتنا، فيتضح فى مكانة المعراج فى الدراسات الإنسانية العربية، ففى نهاية الأربعينيات تبدأ الدراسات الفولكلورية فى تناول تراثنا الشعبى، وتهتم بالسير الشعبية و«الحواديت» ثم الأغانى الشعبية، ولاتكاد تلتفت للنصوص البديعة والقيّمة لقصة الإسراء والمعراج؛ كأنها قد حسبتها نصًا دينيا يخلو من القيمة الجمالية ذات البنية الفولكلورية والأنثروبولوجية المفتوحة لمزيد من الإبداع عبر الإبداع فى تناص أنثروبولوجى لم يتنبه له فى النص الأدبى الشعبى العربى بعامة. ثم تظهر فى السبعينيات والثمانينيات مجموعة من الدراسات حول التصوف وحول العلاقات الأدبية المقارنة تتجاهل أيضا المعراج، إلا استثناءات تشير إليه أو تدور حوله، كأنها محاولات للتذكير بمنطقة متجاهلة من التراث، وتقوم على استعراض للقصة فى بعض مجالاتها، دون تعمق يفجر قضية المعراج ويفتح لها بابا فى ثقافتنا الحديثة.

وهذا الغياب للمعراج فى ثقافتنا الحديثة علامة سيميولوجية قد يكشف عن شحناتها الدلالية حضوره فى ثقافتنا الوسيطة وفى ثقافة الغرب الحديثة. وهو أيضا غياب لمساحة واسعة ومفتقدة من الأبيض لصالح بقعة لا تقل اتساعا من الأسود.

لقد كان حضور المعراج فى ثقافتنا الوسيطة على ثلاثة مستويات براقة، جعلت ترجمته إلى اللاتينية تتوازى زمنيا مع ترجمة العلوم، فكان أول عمل قصصى عربى إسلامى يترجم ويذاع فى الغرب الناهض المتعطش لأبيض التراث العالمى عامة والعربى خاصة.

المستوى الأول، هو المستوى الشعبى الذى التقط آى القرآن الكريم وأحاديث الرسول (ص) وجعل منها نواة لملحمة كبرى ينقل فيها واقعه الأرضى إلى عالم الملكوت؛ حيث تتكشف الحقائق فى ظل محكمة للقيم تكافئ القيم التى يحلم الناس بسيادتها مثل قيمة الصدق، وتعاقب القيم التى ضاق الناس بها مثل قيمة النفاق. ويكون نعيم الواقع الأرضى الذى يتمتع به فقط أصحاب القيم المعاقبة من نصيب الحالمين بالقيم المكافأة الذين يعانون على هذه الأرض عذابا يضاعفونه فى معراجهم لأصحاب النعيم المذكور. والصورة مقلوب للواقع الأرضى فى سماء العدالة التى ترى فى الرسول الأمين أثناء معراجه منتصرا للطبقة الشعبية، ومحققا لأحلامها فى ظل المثال الخلقى للإسلام كما يتصوره الشعب المسلم فى العصور الوسطى العربية.

أما المستوى الثانى لحضور المعراج، فكان على صعيد الإبداع الأدبى والفنى والعلمى. وهنا لا بد من الإشارة إلى مفهوم المعراج الرمزى: إنه انفلات من الجاذبية الأرضية نحو فضاء الكون، وهو أيضا انفلات من ظلام جهل الإنسان بنفسه إلى فضاء المعرفة بهذه النفس. ولإيضاح ذلك؛ يجدر بنا أن نخطط لمراحل معراجية لتاريخ الإنسان؛ فالمعراج الأول يتمثل فى اتجاه عكسى من هبوط آدم على الأرض ثم الإله المصرى توت فجلجامش؛ ثم مرحلة تالية يصير فيها المعراج دورا بين السماء المنيرة وبطن الأرض المظلم وتمثله سفن الشمس التى ترقد اليوم بجوار الأهرام، ولعل براق الرسول (ص) له علاقة بمفهوم السفينة لتشابه اسمه مع جذر السفينة اللاتينى الذى ربما أخذه اللاتين فى السابق من لغات شرقية. أما المرحلة التالية؛ فهى خطية؛ فى اتجاه هابط ثم صاعد عند هبوط المسيح روحا من عند الله فى رحم مريم العذراء ثم صعوده مرفوعا جسما إلى السماء. أما المرحلة الأخيرة والباهرة، فقد بدأت بمعراج محمد(ص) انفلاتا من شد الأرض نحو سموات علا.

وهذه المرحلة الجديدة توقف عن البحث عن أصل الإنسان فى المراحل السابقة بالسفر فى ماضيه للانطلاق بحثا عن مستقبله، وإبحارا فى الكون تحصيلاً للمعرفة وطريقا إلى الله.

ومن هنا تظهر (رسالة التوابع والزوابع) لابن شهيد ثم (رسالة الغفران) للمعرى وكثير من الرحلات المثيرة

للمتصوفة مثل «رحلة ابن عربى نحو المدينة الفاضلة التى صنعت من نصف الطين الذى بقى من خلق آدم». هذه الأعمال الإبداعية الفردية البديعة قابلها على المستوى الشعبى اختراع بساط الريح والحصان المجنح، وغير ذلك من موتيفات الطيران والدخول فى عالم الغيب؛ حيث مسكن الجن فى الحواديت، خاصة فى (ألف ليلة وليلة) التى طورت ذلك أيضا فى الرحلة إلى مدينة النحاس الخفية وفى رحلات سندباد العجائبية.

هذا المستوى للإبداع الأدبى قابله على مستوى الإبداع الفنى أشكال المئذنة متعددة عناصر الصعود. أما على مستوى العلم، فتسجل أول محاولة ناجحة للطيران على يد عباس بن فرناس بقرطبة فى وقت مبكر، ولاشك فى قيمة المحاولة فى تاريخ الطيران، وأنها تمت تحت إنعاش الخيال المعراجى عند اكتمال الملحمة المعراجية فى النسخة الأندلسية لقصة الإسراء والمعراج، اكتمالا ينبئ بختام حضور المعراج فى ثقافتنا. ومن المدهش ـ فى اتفاق حزين ـ ضياع تلك النسخة فى أصلها العربى ثم القشتالى (الإسبانى) لتبقى فقط ترجمتها اللاتينية والفرنسية، لتشعل شرارة النهضة الأوروبية، كما سنرى.

أما المستوى الثالث لحضور المعراج فى العصور الوسطى العربية، فكان التصوف الذى حمل اسم «الطريق»؛ والكلمة تعنى طريق العروج إلى الله عبر السموات السبع التى عبرها الرسول فى معراجه بجسمه فاتحاً باب عبورها للمتصوفة بقلوبهم داخل قلوبهم. وأشهر المعارجين هو ابن عربى.

وقد خصص ابن عربى كتابا للإسراء فى رسائله ثم كتابا للسفر، والسفر عنده معراج أيضا، ثم بعد ذلك لم يتوقف قط عن معالجة الموضوع نفسه فى فتوحاته وفصوص حكمه وعنقاء مغرب. وفى كل أعماله التى يتناول فيها المعراج، يشير إلى كتاب الإسراء كأنما هو العمدة فى تصميم فكرته الأساسية عن عروج المتصوف. ومعالجة ابن عربى للموضوع تنبثق من نظريته فى المعرفة التى جعلت أدوات المعرفة ثلاثاً: الحس والعقل والخيال. والخيال عنده يجمع بين الحس والعقل أو بين التجسيم والتجريد أو التشبيه والتنزيه، وهو قادر على كل شئ لكنه لا ينتج ولا يستقبل إلا الصور. ومن ثم احتفل ابن عربى بالصورة بوصفها نموذجا أمثل للمعرفة، وأرقى المعارف هى معرفة الله، ومعرفة الله لا تتحقق إلا بمعرفة النفس، فمن عرف نفسه عرف ربه.

ومعرفة النفس لا تتم إلا عبر أداة «الخيال» فنصل إلى «صورة النفس». فكيف هى صورة النفس؟ خلق الله آدم على صورته. فهل صورة النفس هى صورة الله؟ إسراء ابن عربى يجيب عن هذا السؤال فيكشف لنا عن عظمة الإنسان. لقد خلق الله أول ما خلق: العالم. وقد خلقه على صورته. فتضمن العالم صورته الذاتية وصورة الله. ثم خلق الله الإنسان على صورة العالم، فتضمنت صورة الإنسان صورته الذاتية وصورة العالم وصورة الله. وهكذا أصبحت صورة العالم وسيطا من ناحية يتضمن صورة الله، ومن ناحية أخرى هو متضمن فى صورة الإنسان. فالإسراء فى صورة الإنسان (ويقصد بالإسراء هنا المعراج لكنه معراج داخل النفس فصار إسراء) بالضرورة هو معراج فى العالم (فضاء الكون) نحو الله؛ أو لنقل معراج فى فضاء نموذج مصغر للكون داخل الإنسان الذى هو ملخص للعالم. وداخل الإنسان هو قلبه (نفسه). وفى القلب سموات سبع؛ فى كل سماء تتكشف مقدرة من قدرات الإنسان الخلاقة والمبدعة.

وهكذا يتحول معراج الرسول إلى طاقة كبرى عند الشعب وعند المبدعين فنانين وأدباء وعلماء، ثم عند المتصوفة. إن دور المعراج يتجاوز تصور الوعاظ عن معجزة تخرق الواقع لتثبت واقعة الرسالة التى لا تحتاج إلى إثبات أرسطى أمام ثبوتها الإيمانى الراسخ، ويتحول إلى معجزة واقعية تجاوز الواقع دائما عبر الإبداع والسعى نحو المعرفة وتكريم الإنسان الذى كرمه الله بنعمة الخيال والعقل بل الحس الذى تدعمه ذاكرة ديناميكية عاقلة.

وحضور المعراج فى العصور الوسطى العربية ارتبط بانهيار تدريجى فى القوة الاقتصادية والعسكرية والاجتماعية على امتداد العالم العربى، فلم يثمر الخطوة العالمة نحو معراج قادم بفلت من معراج سابق، لأن الانهيار الشامل المشار إليه كان يعمل على غيابه عندنا ليحضر عند الغرب الأوروبى الذى احتفظ بأكمل نسخة شعبية للمعراج باللاتينية والفرنسية ، بينما غابت النسخة العربية والإسبانية رمزا لظهور اللون الأسود والسلبية؛ أى الجمود والمحافظة والخضوع للتراث الطليق على حساب حرية الإنسان وانطلاقه ؛ كما أن الغرب عرف (التوابع والزوابع) ثم (رسالة الغفران) ثم (إسراءات ابن عربى ودوائره) ثم (ألف ليلة وليلة).

هذه المعرفة كانت حافز النهضة الأوروبية التى افتتحت العصر الحديث وتحول المعراج إلى انفلات من قبضة الكنيسة والعادات والتقاليد وتراث الكتب الصفراء. وظهر معراج دانتى؛ لقد استوحى دانتى فى (الكوميديا الإلهية) حضور المعراج فى العصور الوسطى العربية على كل المستويات الثلاثة التى أشرنا إليها. وانتقلت محاسبة القيم فى النسخة الشعبية العربية للإسراء والمعراج، بما تتضمن من خلق واقع طوباى هو مقلوب لواقع الناس، إلى محاكمة تاريخية للواقع التاريخى (كما هو) فى إحساس مرهف بظهور المجتمع الحديث الذى يرى فى المصلحة العامة أساسا للتشريع والمحاسبة عقابا وثوابا.

لكن التأثير المدهش للمعراج الذى لم يتناوله الدارسون بعد، هو النهضة الفنية والعلمية والكشفية. إن رسوم ليوناردو دى فنشى وميكائيل أنجلو ورفائيل (صاحب لوحة مدرسة أثينا التى تضم ابن رشد شاهدا على الحضور الإسلامى والمعراجى) تقدم لنا صور المعراج فى فن التصوير؛ فقد تحولت سقوف الكنائس إلى عالم الملكوت كما صوره المعراج الإسلامى بعامة؛ إنها سموات المعراج استلهمها الرسامون كما استلهمها دانتى فى (الكوميديا الإلهية) التى يحق لنا أن نصحح ترجمتها إلى «الكوميديا السماوية» بمفهومنا اليوم للسماء المتحرر من مفهوم «الفضاء» . أما فى مجال العلم، فإن الكشوف الفلكية بداية لبلورة مفهوم الفضاء وفصله عن مفهوم السماء، كما أنها فتحت الباب نحو الكشوف الجغرافية لتكتمل صورة الكوكب الذى نعيش عليه كما اكتملت صورة الإنسان فى معراج المتصوفة المسلمين ثم تلامذتهم المسيحيين. وكما غاب تأثير المعراج فى أواخر العصور الوسطى العربية، يغيب فى إسبانيا بعد خروج العرب منها تدريجيا حتى تقع فى هوة الفقر والتخلف والهزيمة التى تصل ذروتها عام ١٨٩٨ عند هزيمتها أمام الولايات المتحدة الأمريكية وفقدانها آخر ممتلكاتها (كوبا والفلبين) . ولكن فى الأربعينيات تكتشف إسبانيا نفسها عبر اكتشافها تأثير المعراج العربى الإسبانى فى النهضة الأوروبية، وتحدث ضجة كبرى فى أوروبا لا يوقفها إلا اكتشاف النسخة اللاتينية للمعراج العربى الإسبانى التى عليها تعليقات بخط دانتى ثم نشر هذه النسخة . لقد كان ذلك بداية لانعتاق إسبانيا من المرحلة الإقطاعية وسيطة الملامح نحو الحداثة، ونحو عصر الفضاء .

وإذا ارتبطت النهضة الأوروبية بحضور المعراج؛ ألا يمكن أن نربط جمودنا ودوران نهضتنا حول نفسها بغياب المعراج . إن غيابه غيبة لإرادة الإنسان فى الانفلات من التراث؛ بطاقة يولدها التراث نفسه نحو بناء مستقبل يدرك الفرق بين الفضاء والسماء، ثم يدرك ما بينهما من قطيعة واتصال .